أثر السياق القرآني في تنويع أوصاف العذاب

د. فراس عبد العزيز عبد القادر(*)

تَوطِئةٌ تعريفِيَّةٌ

شكَّلت ثنائيتا الترهيب من العقاب، والترغيب في الثواب صورة تلازميه، إذ كان تعاورُهما مما استدعاه التعبير القرآني، ولا غرو في ذلك فالخطاب فيه شمل المؤمن والكافر معاً، فنجد السياق يشكِّلُ وحدة متسقة من الدلالات والمعاني، فَمَن آنسَهُ حال أهل الجنة، راعَهُ حال أهل النار، قصداً لبيان جزاء ما يعملون في الدنيا، فينجلي عمل كل على شاكلته، وسعياً مِنَّا لإبراز جانب من جوانب الإعجاز القرآني في هذا المجال ارتأينا أن نتمكّث ملياً عند موضوع (أوصاف العذاب في النص القرآني الكريم)، فالمنعم النظر في ذكر لفظ العذاب يجد أنّه وصف بأوصاف ونعوت متنوعة(**)، وهذا التغاير في الاستعمال عمد إليه القرآن، وقصدهُ كُلٌّ في موضعه، انسجاماً مع الفكرة المبتغاة عرضها، فصحَّ وصف في موضع لا يصح في غيره. ومن خلال استعراضنا لجذر "عـ.ذ.ب" في القرآن، ألفينا له استعمالات ثلاثة، الأول منها وروده معرّفاً بالألف واللام، والثاني وروده مضافاً إلى ما بعده،

(*) مدرس في قسم اللغة العربية _ كلية الآداب _ جامعة الموصل.

(**) اقتصر البحث على الوصف المفرد فحسب، دون النظر إلى الوصف الجملة، الذي ورد في أربعة مواضع، الأول في قوله تعالى: "فإني أُعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين" المائدة/ 115، والثاني والثالث في قوله تعالى: "..من يأتيه عذاب يخزيه.." هود/ 93،39. والرابع في قوله تعالى: "..من يأتيه عذاب يخزيه.." الزمر/ 40.

والثالث وروده موصوفاً -نكرة كان أم معرفة-، وهو مجال بحثنا. وقد بلغت مواضع وصف العذاب في القرآن الكريم (145 موضعاً)، وسنعمد إلى إحصائها منفردة، ثم نتخير شاهداً نعمد إلى تحليله، مبتدئين بأكثرها ذكراً مستنيرين بما تقدمه الدلالة اللغوية في معان ثرة، ترفد الدلالة السياقية.

وصف العذاب بـ ((الأَلِيْمِ))

شاع وصف العذاب بالأليم في القرآن الكريم، فكانت له الحظوة الأولى على غيره من الأوصاف، إذ ورد في (70) سبعين موضعاً (*)، ستة وثلاثون منها ورد مرفوعاً، وثمانية عشر منصوباً، وستة عشر مجروراً. ومما يلحظ في استعمال هذا الوصف أنه أبرز للكافرين الحالة الموجعة للمعذَّبين، وكأنَّ السامع يرى وضعاً مزرياً مؤلماً، وتأتّى هذا من اقتران هذا الوصف للعذاب في أغلب وروده بالفعل المضارع (نذيق)، وفعل الأمر (بَشِّرْ)، ومن ذلك قوله تعالى: "(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (آل عمران:21).

سياق الآية تهديد لليهود ووعيد لهم، بما جبلوا عليه من صفات الكفر بالله وآياته وقتل أنبيائه والمقسطين من خلقه، وافتتاح جملة الإخبار بـ (إنّ) اشعر

(*) ينظر المواضع: البقرة 10، 104، 174، 178، آل عمران: 21، 77، 91، 177، 188، النساء: 18، 138، 161، 173، المائدة: 36، 73، 94، الأنعام: 70، الأعراف: 73، الأنفال: 32، التوبة: 3، 34، 39، 61، 74، 79، 90، يونس: 4، 88، 97، هود: 26، 48، يوسف: 25، إبراهيم: 22، الحجر: 50، النحل: 63، 104، 117، الإسراء: 10، الحج: 25، النور: 19، 63، الفرقان: 37، الشعراء: 201، العنكبوت: 23، لقمان: 7، سبأ: 5، الأحزاب: 8، يس: 18، الصافات: 38، الشورى: 21، 42، الزخرف: 65، الدخان: 11، الجاثية: 8، 11، الأحقاف: 31،24، الفتح: 16، 17، 25، الذاريات: 37، المجادلة: 4، الحشر: 15، الصف: 10، التغابن: 5، الملك: 28، نوح: 1، المزمل: 13، الإنسان: 31، الانشقاق: 24.

المتلقين بصدق وقوعه، وتخيّر فعل البشارة المقترن بالفاء (فبشرهم) جاء على سبيل الاستعارة التهكمية، إذ أصل البشارة أن تستعمل في الخبر السار والمفرح، وهذا من فنون التعبير بتسمية الشيء بضده استهزاءً وسخرية [1]. و (أليمٍ) وصف للعذاب مجرور بمعنى الموجع، قال الخليل (ت175هـ) [2]: ((الألم الوجع، والمؤلم الموجع، والفعل ألِمَ يألم فهو ألِمٌ، والمجاوز آلَم يُؤلم إيلاماً فهو مؤْلِمٌ)). وقِيْسَ عليه ضرب وجيع –أي موجع-، وسميع أي مسمع، والمراد بالأليم أنْ "يبلغ ايجاعه غاية البلوغ"[3]. وثمة فرق بين الألم والوجع، فالأول ما يلحقه بك غيرك، والثاني ما يلحقك من نفسك ومن غيرك[4]. ولمَّا كان عذاب الكافرين ثابتاً مستقراً، لا ينفك عنهم البتة ولا يفتر، كان للعدول الصوفي من صيغة (مُفْعِلٌ) وهي اسم فاعل من غير الثلاثي، إلى صيغة (فعيل) وهي صفة مشبهة، اثر في السياق، فالصيغة الأولى يراد بها الوصف على جهة الحدوث والتجدد، والصيغة الثانية يراد بها الوصف على جهة الثبوت والدوام. ووجه ترابط العذاب بالألم (أنّ العذاب هو الألم المستمر، والألم يكون مستمراً وغير مستمر، ..فكل عذاب ألم وليس كل ألم عذاباً)[5]. ومما زاد السياق تهويلاً وتخويفاً مجيء الوصف والموصوف مُنكرَّين.

وصف العذابِ بـ (الشديدِ)

---

(1) ينظر: الإتقان في علوم القرآن السيوطي: 102/2.

(2) العين، 347/8.

(3) لسان العرب، ابن منظور: 22/12.

(4) ينظر: الفروق اللغوية العسكري/ 268.

(5) م.ن/ ص.ن.

شغل وصف العذابِ بـ (الشديدِ) في القرآن المرتبة الثانية بعد وصفه بالأليم فورد في عشرين موضعاً [*]، تسعة منها ورد مرفوعاً وسبعة منصوباً، وأربعة مجروراً. ووصف العذاب بالشِّدة جاء بياناً لعظم ذلك العذاب وقوته وسطوته على المعذَّب، فلا هوادة فيه ولوحظ ان سياقاته القرآنية ذكرت في معرض ذكر الكافرين، والصادين عن نهج الله، والمعادين لرسله، فضلاً عن أنّ هذا العذاب الشديد قد يكون واقعاً في الدنيا –كما نصت عليه بعض شواهده-، وقد يكون واقعاً في الآخرة وهو الأغلب، وكلُّها جاءت تهديداً من الله عز وجل، ماخلا موضعاً واحداً جاء التهديد على لسان سليمان في تفقده الهدهد، وشاهدنا في هذا المقام قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) (المؤمنون:77)

الخطاب لمشركي مكة، عمَّا حَلّ بهم من العذاب، وقد اختلف المفسرون في المراد من نزول العذاب عليهم، فقيل هو الجوع والقحط الذي أصابهم بدعاء الرسول ((صلى الله عليه وسلم)) عليهم[6]. وهذا القول يؤيده سبب نزول الآية مع ما قبلها، فقد جاءه أبو سفيان طالباً منه الدعاء لرفع العذاب، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فأنزل الله الآية[7]. وقيل العذاب عُني به يوم بدر وما وقع على المشركين من القتل والأسر في الحرب [8]. وقيل بل هو عذاب الآخرة.. كما

(*) ينظر المواضع: آل عمران: 4، 56، الأنعام: 124، الأعراف: 164، يونس: 70، إبراهيم: 2، الإسراء: 58، الحج: 2، المؤمنون: 77، النمل: 21، سبأ: 46، فاطر: 7، 10، ص: 26، فصلت: 27، الشورى: 16، 26، الحديد: 20، ق: 26، المجادلة: 15.

(6) ينظر: تفسير مجاهد: 433/2.

(7) ينظر: أسباب النزول، الواحدي: 244.

(8) ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي: 485/5.

ينبئ عنه التهويل.. وهو الأرجح والله أعلم، إذ لفظ العذاب في الآية الأولى "ولقد أخذناهم بالعذاب..." هو ما يحتمل الوجهين في حين قصد بلفظ العذاب في الآية التالية: "حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد..." عذاب الآخرة [9]. ودليل هذا افتتاح الجملة بـ (حتى) الابتدائية للجملة الشرطية بعدها. وقوله: "ذا عذاب شديد" (ذا) بمعنى صاحب وصف للمفعول "باباً" مضاف إلى ما بعده "عذاب شديد" وشديد نعت مجرور للعذاب النكرة، وهو صفة مشبهة على وزن (فعيل). وأصل الشِّدة الصلابة، نقيض اللّين، يقال: شيء شديد: بيّن الشدة، والتشديد خلاف التخفيف[10]. ولما كان العذاب المفتوح على المشركين ثقيل الوطأة، صعب التحمل، قوي البأس، استعمل وصفه بالشديد، مبالغة في وصف الشيء بالصلابة خلافاً للقوة التي هي من قبيل القدرة. لذا يوصف الله تعالى بالقدرة لا بالشدة[11].

وصفُ العَذابِ بـ (العظيمِ)

ورد وصف العذاب بالعظيم في خمسة عشر موضعاً قرآنياً [*]، ثلاثة عشر منها ورد مرفوعاً، وموضع منصوباً، وآخر مجروراً، جَلُّها نزل في العهد المدني باستثناء مواضع ثلاثة، وعُقِّب وصف العذاب بالعظيم بعدما بيّنه الله تعالى من تحذيرات شرعية، يتحتم على الإنسان اجتنابها منها القتل العمد، وقذف المحصنات، وأخذ الغنائم، والارتداد عن الدين، كما مثَّل خطاب المنافقين وأهل الكتاب غلبته

---

(9) ينظر: روح المعاني، الآلوسي: 56/18.

(10) ينظر: الصحاح، الجوهري: 2/492-493.

(11) ينظر: الفروق اللغوية: 123.

(*) ينظر المواضع: البقرة: 7، 114، آل عمران: 105، 176، النساء: 93، المائدة: 33، 41، الأنفال: 18، التوبة: 101، النحل: 94، 106، النور: 11، 14، 23، الجاثية: 10.

على خطاب غيرهم، لذا كان هذا الوصف مُتسقاً استعماله مع هول الموقف الذي يروم السياق تبيينه من ترهيب السامع وعظم جرمه. من ذلك قوله تعالى:
(وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (النور:14).

الآية مع ما قبلها جاءت تبرئة لأم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) من حديث الإفك، ولا يخفى عظم أمر مثل هذا في بيت النُّبوة، وإذا أحصينا كلمة (العظيم) في سورة النور – سورة الأحكام النسائية- نجد ورودها خمس مرات [*]، تحذيراً من ذلك اللسان في قذف المحصنات بغير برهان، لذا كان هذا الوصف ضرورة اقتضاها السياق في ترسيخ قضايا الشرع. والعظيم صفة مشبهة على وزن (فعيل)، وأصله: التكبير، يقال عظّمه: أي كبّره، وسمعتُ خبراً فأعظمته أي عظم في عيني.. [12]. ويستعمل العظيم في المحسوس والمعقول عيناً كان أم معنىً [13]. ومعنى الآية لولا إمهال الله لكم، لنزل بكم عذاب عظيم فيما كان عظيماً عند الله وعند رسوله. والإفاضة في الكلام مستعارة من إفاضة الماء.

(*) ينظر كلمة العظيم في سورة النور: 11، 14، 15، 16، 23.

(12) ينظر: العين: 91/2.

(13) ينظر: المفردات، الأصفهاني: 342.

وَصْفُ العَذابِ بـ (المَهِينِ)

وُصِف العذاب بالمهين في أربع عشرة (*) مرة في القرآن، جاء مرفوعاً في ثمانية مواضع، ومنصوباً في أربعة، ومجروراً في موضعين، ولوحظ وقوع العذاب المهين في الآخرة ماخلا موضعين كان العذاب مهيناً في الدنيا في قوله تعالى: (فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) (سبأ: 14)، وقوله تعالى: (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ) (الدخان:30). ومتى استعمل هذا الوصف للعذاب، كان القصد منه الذِّلة والصَغار لكل مَنِ استهان بدين الله ورسوله عصياناً وسخرية واستبدالاً، فناسب ذلك العتو والأنفة أنْ يصاب صاحبه بعذاب يهينه جزاءً وِفاقاً، وشاهدنا على هذا قوله تعالى: (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) (البقرة:90).

الخطاب لبني إسرائيل الكافرين بما أُنزِلَ على محمد (صلى الله عليه وسلم)، حسداً وحقداً لاختصاصه بفضل ربّه عز وجل. وقوله: "و للكافرينَ عذابٌ مهين" جملة تعقيبية لما سبق، وقُدِّم الجار و مجروره (للكافرين) على المبتدأ اختصاصاً لهم بالعذاب، وعضد هذا المعنى مجيء الجارِّ حرف اللام، ونُكر المبتدأ (الموصوف) وصفته ترويعاً وتهويلاً. و(المُهين) اسم فاعل من غير الثلاثي (أهانَ) أفاد ثبوت الوصف في الموصوف. والهون له مدلولان: أحدهما السكينة والوقار مما لايُذَمُّ صاحبه قال تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا

(*) ينظر المواضع: البقرة: 90، آل عمران: 178، النساء: 14، 37، 102، 151، الحج: 57، لقمان: 6، الأحزاب: 57، سبأ: 14، الدخان: 30، الجاثية: 9، المجادلة: 5، 16.

خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً) (الفرقان: 63). وثانيهما: الذِّل والاستخفاف [14] ومنه ما وُصف به العذاب في مقامنا هذا وأُريد بالوصف (إهانتهم وإذلالهم لِما أَنَّ كفرهم بما أنزل الله تعالى كان مبنياً على الحسد المبني على طمع المنزول عليهم، وادعاء الفضل على الناس والاستهانة بمن انزل عليه (عليه السلام) [15]".

وَصْفُ الَعذابِ بـ (المُقِيمِ)

وُصِف العذاب بالمقيم في خمسة [*] مواضع قرآنية، أربعة وردت مرفوعة، وموضع مجروراً. وحيثما دار هذا الوصف فإنه آيسَ المعَذَّبين الخروج منه، أو حتى العودة إلى الدُّنيا، وأنه حَالٌ نازلٌ بهم دون أمل في زوال، لذا سُبق موضعان بالفعل (يَحِل عليه). وموضع بالفعل (أنْ يَخرجوا..)، وموضع بالاسم (هل إلى مراد من سبيل)، وموضع بالاسم (خالدين فيها). وجميع هذه الألفاظ تدل على أن عذاب الكافرين غير منفكٍّ عنهم. لذا كان أنسب وصف يوصف به عذابهم بأنّه مقيم دائم، ونأخذ على ذلك قول الله تعالى: (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) (المائدة:37).

سياق الآية تأييس للكافرين بعدم الخروج من النار، بعد مكابدتهم، وابتداء الجملة بالفعل المضارع (يريدون..) دلَّ على أن دعوتهم للخروج متجددة مستمرة، فجاءَ الردُّ بالجملة الاسمية المنفية بـ (ما) والمقترن خبرها بالباء، إشعاراً ببقائهم في العذاب على جهة الدوام –إلا ما شاء الله-، لذا كان أفضل جملة يُعقَب بها الكلام قوله (ولهم عذابٌ مُقيمٌ)، إذ لمّا كان إرادة الخروج من مكانٍ ما يقتضي عدم الإقامة فيه،

(14) ينظر: المفردات: 513-514.

(15) إرشاد العقل السليم، أبو السعود: 129/1.

(*) ينظر المواضع: المائدة: 37، التوبة: 68، هود: 39، الزمر: 40، الشورى: 45.

ولاسيما إذا كان المثوى جهنم، جيء الردُّ بالرفضِ من الخروج، والمقيم اسم فاعل من غير الثلاثي (أقام)، وأصله الثبات في المكان، ويعبر عنه بالدوام، ومنها المُقام والمقامة، يقال للمصدر والمكان والزمان والمفعول(16).

وَصْفُ الَعذابِ بـ (الغَلِيظِ)

وُصِف العذاب بالغليظ في مواطن أربعة(*) من التعبير القرآني، ورد مرفوعاً في واحدٍ، ومجروراً في ثلاثة. وانحسر ذكره على السور المكية حصراً، وتَخيِّر هذا الوصف جاء مناسباً لما اغترَّ به الإنسان من قوة وبسطة في النفس والمال، فبدلاً من أن يشكر فضل الله عليه، أعرض ونأى بجانبهِ. وخير ما يمثل ذلك قول الله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) (هود:58).

سِيقت هذه الآية في معرض نجاة هود (عليه السلام) والمؤمنين معه، مِمَّا حلَّ بعادٍ من عذاب الله في الدُّنيا والآخرة، ومِمّا لا يخفى أنّ هؤلاء القوم قَد مَنَّ الله عليهم بأَن بسط لهم قوة في البَدن، وإرادة في البطش، حتى اغتروا بما متّعوا به "فقالوا مَن أَشَدُّ مِنّا قُوة" فصلت/ 15، فما كان جزاؤهم إلاّ أَنْ عُذِّبوا بعذابٍ غليظ، ناسبهم قوة وبطشاً. وأصل الغلظة أَنْ تستعمل في الخشن ضد الرقة في الخَلق والطبع والفعل والمنطق، وهو مأخوذ من قولهم: غلظت السّنبلة، واستغلظت إذ اخرج القمح فيها..، وأَرض غليظة غير سهلة حتى استعمل في المعاني فقيل: أمر غليظ أي شديد صعب (17). ووصف العذاب بالغليظ جاء على جهة الاستعارة

(16) ينظر: المفردات: 418.

(*) ينظر المواضع: هود: 58، إبراهيم: 17، لقمان: 24، فصلت: 50.

(17) ينظر: نظم الدرر، البقاعي: 315/9.

(لثقله على النفس، وطول مكثه) [18]. قال المفسرون في ذلك العذاب أنه العذاب الدنيوي المرسل عليهم بالريح العقيم، وقال آخرون هو عذاب يوم القيامة [19]. وأياً كان الرأي في التفسير، فإن وصف العذاب بالغليظ يَصِحُّ للعذابين معاً.

وَصْفُ العَذابِ بـ (القريب)

وُصِفَ العذاب بالقريب في موضعين [*] قرآنيين، ورد مرفوعاً في موضع، ومنصوباً في آخر، خصَّ الأول قوم صالح (عليه السلام) ثمود، والثاني مشركي مكة، وسياقهما ورد في التحذير من قرب نزول العذاب دنيوياً كان أم آخروياً نظراً لاستعجالهم به قال تعالى: "إنَّا أنذرناكُم عذاباً قريباً" النبأ / 40، المخاطبون في الآية مشركو مكة، تحذيراً لهم مما أُنذروا به من قرب وقوع العذاب، وتحقيقاً لصدق ذلك الإنذار استعمل الفعل الماضي بدلاً من الفعل المضارع الدال على الاستقبال. وعذاباً مفعول ثان لـ (أنذرناكم)، وقريباً وصف منصوب له، على زنة (فعيل) صفة مشبهة، ونُكِّر زيادة في الترويع، وللمفسرين في العذاب القريب قولان: الأول عُني به عذاب الآخرة –وهو ما تقدم الإنذار به-. والثاني عُني به عقوبة الدنيا من قتل المشركين يوم بدر، والأول أرجح، لأنَّه عُقِّب بما يُستدل منه على يوم القيامة بقوله تعالى: (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) (النبأ: 40)، ووصفه بالقرب مجاز فهو كالقريب؛ لأنَّ كل آتٍ قريب، وهو بالنسبة لله قريب،

(18) ينظر: التسهيل: 201/2.

(19) ينظر: التحرير والتنوير: 56/30.

(*) ينظر الموضعان: هود: 64، النبأ: 40.

وإنْ رأوه بعيداً، أو لأنَّ الدنيا على آخرها [20]. فهو متحقق الآتيان. وقد أشعر هذا الوصف المتلقي بحال زمني ونفسي مزريين.

وَصفُ العَذابِ بـ (الكبير) و (الأكبرِ)

ورد هذان الوصفان في ثلاثة مواضع[*] من القرآن، جاء الأول نكرة منصوباً على صيغة (فعيل)، وجاء الثاني معرّفاً بالألف واللام مجروراً على صيغة اسم التفضيل، فالأول في قوله تعالى: (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً) (الفرقان: 19)، نلحظ كيف توافق وصف العذاب بـ (كبيراً) مع قوله تعالى: (ومن يظلم منكم). إذ لَمّا كان الظلم في أَصله مجاوزة الحد وطغيانه عن حجمهِ، فأصبح كبيراً على صاحبه، وأكبر الظلم الكفر بالله، لذا كان وصف العذاب بـ (كبيراً) مقتضىً أسلوبياً، والثاني قوله تعالى: (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (السجدة: 21)، اتفق وصف العذاب بالأكبر وهو عذاب الآخرة، مع ما وصف به عذاب الدنيا بالأدنى، فما عاناه المشركون من عذاب في الدنيا قياساً بعذابهم يوم القيامة، لا يعدو إلاّ أن يكون نزراً قليلاً. وصيغة (أكبر) أفعل التفضيل للمفاضلة بينهما، محلى بالألف واللام وجبت مطابقته للمفضل عليه، ومما يلحظ في الموضعين أنّ العذاب قد سبق بالفعل المضارع (نذيق) الذي استعمل على جهة الاستعارة وكأن العذاب يُذاقُ كما يُذاق المأكول والمشروب، والثالث في سورة الغاشية وهو قوله تعالى: (فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) (الغاشية:24).

---

(20) ينظر: التسهيل: 327/4، التحرير والتنوير: 56/30.

(*) ينظر المواضع: الفرقان: 19، السجدة: 21، الغاشية: 24.

وَصْفُ العَذابِ بـ (النُّكُر)

استعمل هذا الوصف نكرة منصوبة في موضعين [*] قرآنيين، وأُريد بهذا الوصف أنّ عذاب الكافرين يوم القيامة لا يعلم كنهه، وشدّة باسه إلاّ الله تعالى، وليس للمخاطبين سابق عهد بمعرفته سوى ما أخبر الله عباده عنه، وما خفي أجلّ وانكى، فلننظر إلى قوله تعالى: (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً) (الكهف:87).

الآية إخبار من الله، عمَّا وقع من ذي القرنين، حينما بَلَغَ مغرب الشمس فأجاب على سائليه: (قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً) (الكهف: 86)، بأنَّ من ظلم له عذابان الأول في الدنيا والآخر في الآخرة، وتأمل كيف وصف الحق تبارك وتعالى عذاب الآخرة بقوله: "عذاباً نُكراً" ولم يصفه في عذاب الدنيا، إذ عذاب الله ليس كعذاب الخلق بعضهم لبعض، وأصل النكر: ضد المعرفة، يقال: نكِرتُ الرجل نُكراً ونكوراً، وقد نكّره فتنكر، أي غيّرهُ فتغير إلى مجهول، ومنه رجُلٌ نُكْر ونُكُر ونَكِرٌ- أي داهٍ فَطِنٌ [21]. والنُكْر والنُكُر لغتان في الأمر الشديد [22]. فالنُكْر كما في الموضعين في وصف العذاب. والنُكُر في قوله تعالى: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ) (القمر:6)، غير أننا إذا نظرنا إلى الاستعمالين من الناحية الصوتية، نجد فرقاً دلالياً بينهما. فـ (نُكْراً) متكونة من مقطعين [نُكْـ(ص+ ح+ ص) مقطع طويل مقفل] و [رَاْ (ص+ ح+ ح) مقطع

(*) ينظر الموضعان: الكهف: 86، الطلاق: 8.

(21) ينظر: الصحاح: 837/2.

(22) ينظر: معجم الفصيح من اللهجات العربية، د. محمد جمران: 554.

طويل مفتوح] وكلمة (نُكُر) متكونة من مقطعين أيضاً [نُـ(ص+ ح) مقطع قصير مفتوح] و [كُرْ (ص+ ح+ ص) مقطع طويل مقفل]، فيتضح أنَّ (نُكْرا) انتهت بمقطع مفتوح، وهذا ناسب عذاب الآخرة طويل الأمد، ولا يُعرَف له انتهاء فهو أَحقاب وأَحقاب. خلافاً لـ (نُكُر) المنتهية بمقطع مقفل، فدعوة الداعي إلى شيء نُكُر يوم القيامة محدودة الزمن، وغايتها بعد الفصل بين الخلائق، فضلاً عن أنّ قوة النبر الصوتي في الأول أكثر من الثاني.

وَصْفُ العَذابِ بـ (الضِّعْفِ)

ورد هذا الوصف في موضعين [*] قرآنيين، واختص ذكره بدعوة الاتباع بتضعيف العذاب للمتبوعين الذين ضلوا وأَضلوا، حملاً على أنَّ مَنْ سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، غير أنَّ هذه الدعوة لا جدوى منها (قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ) (لأعراف: 38)، من ذلك قوله تعالى: (قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ) (صّ:61). هكذا تقع اللائمة بين التابع والمتبوع داخل جهنم، بمضاعفة العذاب لمن كان سيداً ورئيساً، بإضلال مَنْ كانَ دونَهم منزلة. وقوله: "عذاباً ضعفاً" أي مضاعفاً. والضِّعف: زيادة الشيء مثله، يقال: أضعفت الشيء إضعافاً، وضعفته تضعيفاً، وضاعفته مضاعفة أي جعل الشيء مثلين فأكثر[23]. قال الأزهري[24]: (الضِّعف في كلام العرب: المثل إلى ما زاد، وليس بمقصور على مثلين، يقال هذا ضعف هذا أي مثله، وهذا ضعفان أي مثلاه، وجائز في كلام العرب أنْ تقول: هذا ضعفاه أي مثلاه وثلاثة أمثاله، لأن

(*) ينظر الموضعان: الأعراف: 38، ص: 61.

(23) ينظر: مقاييس اللغة: 575.

(24) ينظر: العين: 317/7. تهذيب اللغة: 1/480-481.

الضعف في الأصل زيادة غير محصولة..). لذا وَصْفُ العذابِ بالضِّعف ورد لمطلق التكثير مما لا يُحد بمقدار.

أوصافٌ للعَذابِ أُحاديَّة المَوضِعِ

ثمة أوصاف وُصِف بها العذاب مرة واحدة في التعبير القرآني، من ذلك وصف العذاب بـ (البئيس) في قوله تعالى: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (لأعراف:165).

هذا العذاب البئيس خاص بأصحاب السَّبت، دون غيرهم جزاء تماديهم في ظُلم أنفسهم، وأصل البؤس: الشِّدَّة والنازلة والضرر، ومنه سُميت الحرب بالبأساء، ورجل بائس أي نازلة به بلية. و (بئيس) على وزن فعيل فيه وجهان، أحدهما أنّه نَعتٌ للعذاب مثل شديد، وثانيهما: أنه مصدر تقديره: بعذاب ذي بأس –أي ذي شدة-[25].

وتفخيماً للموقف وتهويلاً منه نُكِّرَ الموصوف وصفته.

ومن أوصاف العذاب أحادية الذكر، ما وصف به بعدم الرد، وقد ورد حصراً في قوله تعالى: (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) (هود:76).

توجيه الإعراض عن وقوع أمر الله المحتوم، موجه لإبراهيم (عليه السلام)، إذ دعا وجادل عن قوم لوط (عليه السلام)، ولكن قد فات الأوان، فقد جاءَ العذاب ولا رادَّ له ولا مصرف عنه، "إنهم آتيهِم عذابٌ غيرُ مردود" فانظر إلى صدق

(25) ينظر: إملاء ما مَنَّ به الرحمن، العكبري: 287/1.

الخبر المؤكد بـ (إنَّ)، ووقوع خبرها اسم فاعل (آتيهم) زاد الأمر ترسيخاً وثباتاً، وقوله: "غيرُ مردود" نعت للعذاب مضاف والمعنى: عذاب لا سبيل إلى دفعه ورده بدعاء أو جدال، و (غير) اسم ملازم للإضافة في المعنى، ولا تتعرف إلا بالإضافة لشدة إبهامها[26]، والمضاف إليه (مردود) اسم مفعول من الثلاثي المضعّف (رُدَّ)، وأصل الرد: الصرف (ردّه عن وجه يردّه ردّاً ومرداً: صرفه.. والمردود: الرد وهو مصدر مثل المحلوف والمعقول.. والارتداد الرجوع ومنه المرتدُّ) [27]. ووصف عذاب قوم لوط بعدم الردِّ (لإصرارهم على الكفر والتكذيب، بعد إستبانة الحقِّ لهم)[28].

ووصف العذاب بوصف أحادي الموضع بالأدنى، وقد ورد هذا في قوله تعالى: (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (السجدة: 21). هذا العذاب خاص بمشركي مكة، والمقصود من العذاب الأدنى عذابُ الدنيا، وقد تعددت آراء المفسرين في المراد منه، فقيل: هو مصائب الدنيا وأسقامها، وقيل: هو الحدود، وقيل: هو عذاب القبر، وقيل: هو القتل يوم بدر [29]. وأن الرأي الأول أرجح لشموله أصناف العذاب الدنيوي. و (الأدنى) اسم تفضيل على وزن (أفعل) محلى بالألف واللام. وأصل الدنو: القُرب يقال: دنا الشيء من الشيء دنواً ودناوة: قرب، والدناوة: القرابة والقُربى.. وسُميت الدنيا لدنوها، ولأنها دنت وتأخرت الآخر، والأدنى: السَّفل[30].

---

(26) ينظر: مغني اللبيب، ابن هشام: 216/1.

(27) الصحاح: 472/2.

(28) تنوير الأذهان، البروسوي: 189/2.

(29) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 14/ 71-72.

(30) ينظر: لسان العرب: 271/14 وما بعدها.

ووُصف العذاب بالواصِب في موضع قرآني متفرِّد، وذلك في قوله تعالى: (دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ) (الصافات: 9). العذاب الواصب مقتصر على الشياطين خاص بهم، حال استراقهم السمع من السماء، فيلحق بهم مدحورين خاسئين، والوصب المرض، يقال: وَصِب يَوْصَبُ وَصَباً، والجمع أوصاب أي أوجاع.. والوصوب: ديمومة الشيء فهو واصب [31]. والوصب: شدة التعب [32]. والمعنى عذاب (دائم ممرض موجع كثير الايجاع مواظب على ذلك ثابت عليه. وان افترق الدوامان في الاتصال والعظم والشدة والألم) [33]. (وفي زمان هذا العذاب قولان: أحدهما: أنّه في الآخرة. والثاني: انّه في الدنيا، فهم يخرجون بالشهب ويخبلون إلى النفخة الأولى في الصور)[34].

ووُصف العذاب بالهُون مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (فصلت:17).

صاعقة العذاب الهون هو عذاب الله الذي نزل بقوم ثمود، وعقابهم هذا جاء متوافقاً مع ضلالهم وعميهم، لأن الصاعقة تعمي الأبصار، و إضافة (صاعقة) إلى (العذاب)؛ للدلالة على أنها صاعقة تعرف بطريق الإضافة إذ لا يعرف بها إلاّ ما تضاف إليه، أي صاعقة خارقة لمعتاد الصواعق، فهي صاعقة مسخرة من الله لعذاب ثمود[35]. والهُون بالضم الهوان والاستخفاف، وهو الشيء الحقير، والهين

---

(31) ينظر: العين: 168/7.

(32) ينظر: تهذيب اللغة: 255/12.

(33) نظم الدرر: 198/16.

(34) ينظر: زاد المسير: 47/7.

(35) التحرير والتنوير: 263/24.

الذي لا كرامة له أي لا يكون على الناس كريماً[36]. ويجوز أن يكون الهون وصفاً للعذاب أو بدلاً منه على تقدير صاعقة الهون، وتميز هذا الوصف لعذابهم، لما يحمله من مذلة واستصغار فقد أُهلكوا أيّما إهلاك. ووصف العذاب بالمُستقر في موضع قرآني ورد في قوله تعالى: (وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ) (القمر: 38). العذاب المستقر حل بقوم لوط (عليه السلام)، وعذابهم الدنيوي هو الطمس وقلب قريتهم –أعلاها أسفلها- ووصفه بالاستقرار أي دائم مستقر فيهم؛ إذ أصل الاستقرار: التمكن والثبات، ومنه سميت القارورة؛ لاستقرار الماء فيها[37]. وصيغة (مستقر) اسم فاعل من غير الثلاثي، دلَّ على رسوخ الوصف في الموصوف على جهة الحدوث. وفي معنى (مستقر) وجوه، أحدها انه عذاب لا دفع له ولا إزالة. وثانيها: انه دائم فيهم؛ لأنهم لَمَّا أُهلكوا نُقلوا إلى الجحيم، فما أتاهم من عذاب لا يندفع بموتهم، إذ الموت يخلص من الألم. وثالثها: انه عذاب خاص بهم لا يتعدى غيرهم، إذ أقرَّه الله عليهم[38]. والمعنى أن العذاب مستمر فيهم، فما كان دنيوياً فهو الطمس والقلب، وما كان آخروياً فهو الجحيم والنار.

ومن أوصاف العذاب التي تفرد الاستعمال القرآني بذكرها مرة واحدة، وصفه بالواقع، وذلك في قوله تعالى(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ) (المعارج:1-2).

السائل بوقوع العذاب حسب ما ورد في سبب النزول هو النضر بن الحارث، إذ سال الرسول (صلى الله عليه وسلم)، قائلاً له: إن كان هذا هو الحق

---

(36) ينظر: العين: 92/4.

(37) ينظر: مقاييس اللغة/ 843.

(38) ينظر: التفسير الكبير، الرازي: 56/29.

فأمطر علينا حجارة من السماء.. [39] فنزلت الآية وقد وقع عليه العذاب فقتل يوم بدر صبراً. والسؤال بمعنى الدعاء لذا تعدى بالباء، و (واقعٍ) نعت مجرور للعذاب. وأصل الوقوع سقوط الشيء، يقال وقع الشيء وقوعاً فهو واقع، والواقعة القيامة؛ لأنها تقع بالخلق فتغشاهم، والوقعة: صدمة الحرب [40]. ووصف العذاب بالوقوع أفاد استهزاء السائل وسخريته بتعجيل العذاب، وتخيّر (واقع) اسم فاعل بصيغة الماضي دون (سيقع)؛ اشعر المتلقي بتحقق وقوعه في الدارين الأولى والآخرة. ثم أُكملَ الوصف بأنه (للكافرين) وأتبعه بأنه (ليس له دافع).

ولعل آخر ما تقف عنده من أوصاف العذاب، وصفه بالصَّعد، وقد ورد هذا الوصف في قوله تعالى: (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً) (الجن:17).

هذه الآية تحذير ووعيد لكل من يُعرض عن نهج الله ودينه، بان يسلكه الله تعالى عذاباً صعداً أي شاقاً، وأصل الصعد: المشقة والشدة و(الصعود بمنزلة الكؤود من عقبة وارتكاب مشقة في أمر. والعرب تؤنثه وقول العرب: لارهقنّك صعوداً أي: لاجشمنك مشقة من الأمر. وأشق ذلك لأن الارتكاب في صعود أشق من الارتكاب في هبوط) [41]. ووصف العذاب بالصعود لأنه يعلو المعذَّب ويغلبه[42].

---

(39) ينظر: أسباب النزول/ 337.

(40) ينظر: مقاييس اللغة/ 1062.

(41) العين: 289/1.

(42) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 14/19.

Abstract

Dr. Firas A. A. [(*)]

The two dualistics of frightening of torture and desire in reward has formed a companying image that their metaphorical use was a necessity required by the Quranic expression. And in that, there is no strangeness in case the speech is adressed both to believers and unbelievers. We find the text makes a symmetrical unit of signs and meanings. So, that who is interested in the state of those in Heaven is frightened by the state of those in Hell in purpose to show what to do on earth and that will make it obvious how and what every one to do.

We are about to present one side of the Quranic miraculous sides in this direction. We saw that we have to stay for a long time at the subject "The Discription of Torture in the Quranictext" so, that who considers attentively the utterance torture he will find that it is described by different descriptions, and the variety of usages the Quran intended and meant every one in its position in harmony with the idea that was to be presented. So, one description is

(*) College of Arts / University of Mosul.

acceptable where no other description is acceptable. Through our view of the base word (عـ . ذ . ب .) in the Quran, we found that it has three usages: First, it came definite with the Arabic definite article (أل), second, it came as premodifier, and third, it came modified definite or indefinite- and this is our field of research.

The places where torture was described in holy Quran were (144) places and we'll aim to count them one by one, then we'll choose one of them to discuss starting with the one that came most frequently getting benefit from the large number of meaning that the structural reference offers to support the textual reference.